



تعالى: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ليحييكم) (3)

الشريعة منهج حياة

من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية أنها ربانية المصدر، مما جعل مراسيمها

تأهها القلوب حبا وتعظيما وانقيادا، (الم يعلم بأن الله

يرى) [العلق:14].. ففقه المراقبة في حس المسلم الصادق حي ينبض في خطراته

وتصرفاته، عكس القوانين الوضعية التي تحتاج لمراقبة البشر للبشر.

ولا أنسى أبدا منظر جاري صاحب مصنع للحلويات الكبير وهو جالس في غرفة

التحكم لا تغادر عيناه شاشات كاميرات المراقبة كي لا يسطوا أي من عمال

مصنعه على محتوياته الثمينة أكلأ أو سرقة أو نهباً دون أن تراه أعين الرقيب،

والشيء مثله في كاميرات السوبر ماركت والبنوك والمتاحف... وغيرها.

ليس عيباً أن يحرس المرء ماله، ويراقب أعماله وعماله، لكن أن نعيش بثقافة

التلصص والخيانة فهذا خلل في الإيمان، وثلمة في القلوب مردها إلى فقدان فقه

المراقبة لمن يعلم السر وأخفى.

ولا أدل على أهمية هذا الفقه التربوي من معدلات الجريمة المخيفة التي تعشش

في المجتمعات الغربية رغم تقدمها المادي، بل إن أمريكا نفسها التي تدعي

سيادتها للعالم تتربع على رأس هرم الجريمة العالمي، رغم تقنيات التنصت

والمراقبة الفائقة الدقة.

يقول الشيخ القرظاوي: إن القوانين لا تخلق باعثاً ولا تكفي ضابطاً، فإن

الإفلات منها ممكن والاحتياط عليها ميسور، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط

أخلاقية تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها.. لا بد من هذا الباعث

الداخلي ومن هذا الوازع الذاتي، ولا بد من الضمير أو الوجدان أو القلب -سمه

ما شئت- فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله وإذا فسدت فسدت كله.

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ أن العقيدة الدينية لا

يغني غناها شيء في تربية الضمير وتزكية الأخلاق وتكوين البواعث التي تحفز

على الخير والضوابط التي تردع عن الشر.

حتى قال بعض قضاة العصر في بريطانيا وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة رغم

تقدم العلوم واتساع الثقافة ودقة القوانين: «بدون أخلاق لا يوجد قانون،

وبدون إيمان لا توجد أخلاق».

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين..

بدون عقيدة في الله وفي الجزاء في الآخرة حتى قال فولتير: «لو لم يكن الله

موجوداً لوجب علينا أن نخلقه» أي نخترع للناس إليها يرجون رحمته ويخافون

عذابه ويلتمسون رضاه فيعملون الصالحات ويتجنبون السيئات.

ويقول مرة أخرى ساخرًا: «لم تشككون في وجود الله ولولاه لخانتني زوجتي وسرقني خادمي»

وقال بلوتارخ: «إن مدينة بلا أرض تحتها أسهل من قيام دولة بلا إله» (4)

إن القانون الوضعي يحتاج دوماً إلى قانون وضعي آخر يحميه، أما قانون السماء

فله رب يحميه، ولذلك لا معنى للإيمان بدون انقياد لله ولرسوله لأنه عين

الحياة، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ

وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ

تَحْشُرُونَ [الأنفال:24]

الهوامش

(1) أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري: 2/36

(2) تفسير الرازي: 7/384

(3) تفسير السلمى: 1/263

(4) الدين في عصر العلم، يوسف القرظاوي، ص 38-39

د / خالد سعد النجار

<br />

<br />

## الرباط الاصيلي